

العمارة في شرق آسيا

تدخل ضمن مفهوم شرقي آسيا حالياً عدة دول قامت وتشكلت حديثاً، ولكن قديماً كانت الحضارة الهندية تمثل وتضم أغلب مناطق الحضارة في وسط شرقي آسيا، بينما تضم حضارة الصين الشرق الأقصى بكامله.

لعل بعض المؤثرات القديمة هي التي حددت مظاهر الحضارة في وسط وشرقي آسيا، وطبعتها في طابع متقارب فيما بينها أحياناً ومختلف في أحيان أخرى، وقد تأثرت الحضارة القديمة في الهند والصين بحضارات الشرق الأوسط، كما أن رياح التأثير نقلت الكثير من شرقي آسيا إلى الشرق الأوسط وخاصة في القرون الوسطى، إلا أن احتكاك الغرب الأوروبي كان قد تأخر كثيراً مع مناطق شرقي آسيا في مجال الحضارة المعمارية.

وفي دراستنا لعمارة شرقي آسيا نلجأ إلى الاختصار، ولعدة أسباب أهمها:

- 1- أن العمارة في شرقي آسيا ليست ضمن منطقة واحدة أو بلد واحد.
- 2- العمارة في شرقي آسيا هي ضمن مجالين للحضارات القديمة:

• الأول: في الهند وكانت حضارتها في احتكاك وتبادل مع حضارات الشرق الأوسط، ومنذ أقدم العصور التاريخية.

• الثاني: في الصين وكانت بعيدة ومغلقة في وجه رياح التبادل والتأثير الحضاري، وذلك حتى بداية القرون الوسطى.

3- خضعت حضارات شرقي آسيا في الهند والصين لتأثير الديانة البوذية، التي وجهت العمارة وجهة خاصة تتماشى مع مفهوم هذه الديانة.

4- إن الحضارة في شرقي آسيا، لا تعتبر امتدادا ولا رافدا للحضارة في منطقة الشرق الأوسط.

5- لم يكن هنالك قواعد أو نظريات معمارية مشتركة بين العمارة في الشرق الأوسط والعمارة في شرق آسيا، إلا في فترة واحدة وهي عصر العمارة الإسلامية في الهند.

العمارة الهندية

عرفت بلاد الهند الحضارة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت حضارتهم مرتبطة ومتأثرة بالحضارات الأخرى التي عاصرتها، مثل الحضارة الراقية والمصرية والفارسية والصينية.

إن امتداد الهند جغرافيا جعلها تجمع بين المناطق الحارة والباردة، وبين المرتفعات والسهول وبين الغابات والصحراء. وقد سكنت الهند شعوب متعددة الأجناس والتقاليد، وأدى هذا التباين إلى تنوع الفنون المعمارية في شبه القارة الهندية، من حيث المضمون والشكل وطريقة الأداء ومواد البناء التي استعملت أيضا، وبالرغم من هذا التباين في جميع أوجه الحياة المادية والروحية، وتعدد الأقاليم والأديان في بلاد الهند التي أدت إلى تعدد أساليب العمارة، فإن وحدة الهند الثقافية والفنية كانت أمرا واقعا سجله تاريخ الحضارة والعمارة في الهند وعلى مر العصور.

تعود أقدم المعطيات عن النشاط العمراني في الهند للألف الثالث قبل الميلاد، إذ أكدت التنقيبات التي بدأت عام /1924/ في منطقة موخنجو دارو وهارابا، على وجود بقايا معمارية تعود للألف الثالث والثاني قبل الميلاد، وهي عبارة عن مباني لمنازل ومحلات ومخازن للحبوب بنيت كلها من القرميد، واصطفت على جوانب الشوارع العريضة والضيقة، وهي شوارع منتظمة إلى حد ما، وكانت تتجه إلى الجهات الأصلية الأربعة، وقد زودت المدينة بشبكة متطورة من المجاري.

كما يعتقد بأن غالبية مدن الألف الثالث قبل الميلاد قد دمرت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، ولا يعرف عن مدن الألف الأول قبل الميلاد إلا من خلال الأناشيد في المهابهاراتا والرميانا، ولكنها لا تختلف عن المدن الأقدم، إذ أنها بنيت أيضا من المواد الغضارية والخشب مما ساعد على اندثارها خلال القرون التي مرت عليها، ولم يعد هناك ما يساعد على دراستها بشكل دقيق.

العمارة الدينية:

ارتبط تطور العمارة الدينية بالديانة البراهمية والبوذية التي يرجع تاريخها إلى مئات السنين قبل الميلاد، حيث اتخذت الديانة طريق البحث عن الحقيقة الأبدية والجمال الصادق، حتى تطورت إلى فلسفة مثالية، قريبة المعالم من الفلسفة الكلاسيكية، وتتحقق الفكرة المثالية أو الحقيقة الأبدية عند الهندوس، في مظاهر حياة الإنسان الثلاثة التي تنحصر في الولادة والموت وما بينهما من حياة، ويرمز لتلك المظاهر بألهة ثلاثة هم: براهما الإله الخالق، وقشدو الإله الحافظ، وسيفا الإله المدمر.

نتيجة لهذه المعتقدات في الديانة البرهمية والبوذية، كان الفن عامة يتجه نحو الرمزية في منحوتاته بشكل رئيسي ومباشر، وفي مبانيه بشكل غير مباشر. حتى ظهرت بعض المباني الدينية، وكأنها كتل متراسة من النقوش والتمائيل الرمزية، التي تكسب المباني مظهرا فنيا قل ما وجد له مثيل في الحضارات أو الديانات الأخرى.

العمارة البرهمية والهندوسية

تبدأ مرحلتها منذ بداية القرن السادس الميلادي، وتسمى بالعمارة الهندوسية، ولا يعتبر المعبد الهندوسي مكانا للعبادة فحسب، بل هو مأوى للآلهة كذلك، وأهم جزء فيه يسمى بجاريا جريها، ويمثل قدس الأقداس في الكنائس والمعابد الأخرى، وهو عبارة عن حجرة مخصصة لتمثال الإله، لها جدران سميكة وسقف ثقيل.

أخذت واجهات المعابد وأسطحها الخارجية اهتماما كبيرا من الفنان الهندوسي، الذي كان يغني هذه العناصر بالزخارف المعمارية الدقيقة والمعبرة، بحيث تبدو هذه العناصر وكأنها أعمال من النحت الخالص، علما بأن بناء المعبد الهندوسي في البداية كان بسيطا يتكون من بناء مكعب يعلوه برج يتفاوت في الحجم من معبد لأخر، وتحيط به جدران صماء عليها أعمال من النحت بسيط التكوين.

يختلف بناء المعبد الهندوسي في شمال الهند عنه في جنوبها، خاصة في شكل البرج الذي يعلو كل منهما، فبرج المعبد في الجنوب يقل في الارتفاع عن أبراج الشمال، كما أن لعماراته أفاريز أفقية ثقيلة متوزعة في صفوف تبدو لثقلها مرتبطة بالأرض، على خلاف معابد الشمال الذي يحس المرء باتجاه أبراجها نحو السماء، بحيث ينتهي برج المعبد الجنوبي المثلث الشكل في أغلب الأحيان بما يشبه القبة عادة، إلا أن كلا المعبدتين قد تطور عند بداية القرن السادس الميلادي، فأصبح أكثر تعقيدا ولم يعد مقتصرًا على الحجرة المقدسة والبرج فحسب، بل زاد عليها بهو مستطيل مسقوف أقيم من أجل الاجتماعات الدينية، أمام الحجرة المقدسة التي كانت عبارة عن ساحة مربعة الشكل.

وأقيمت في جنوب الهند معابد في نهاية القرن السادس الميلادي على شكل صليب، ومن أمثلتها ما شيد في مدينة دهاروار وتانجور وشيدام بارام. ونحت بعضها في الجبل وشيد بعضها الآخر بالحجارة، يرتفع بعضها إلى أكثر من عشرة أمتار، علما بأن بعضها ذو سقف هرمي التكوين، وبعضها الآخر ذو سقف أسطواني تغطيه قبة تنتهي عند حافتيها ومأنها لوح خشبي منحني إلى الجوانب. ومن أجمل معابد الجنوب معبد بيباناتا.

أما معابد الشمال فأشهرها معبد سيفا في أجانتا، شكله مربع ذو بهو واسع يضم عدد كبير من الأعمدة الضخمة، ينتشر الضوء من خلالها بصعوبة، وينتهي هذا البهو بتمثال هائل له ثلاثة رؤوس ترمز للآلهة (فشنو- شينه- براهما)، ويشير حجم هذه الرؤوس الهائل إلى ضآلة الإنسان، وإلى معاني القوة والرهبنة التي هي أساس الإيحاء الديني عند الهندوس، ويبلغ ارتفاع التماثيل حوالي 5/ أمتار وعلى كل وجه من الوجوه الثلاثة تعبير مختلف عن الآخر.

هناك مجموعة من المعابد في كاجوراهو، وتشتمل هذه المنطقة على 85/ معبدا ملتفة حول بحيرة صغيرة تغطي مساحة قدرها 12/ كيلو متر مربع، وجميع هذه المعابد متقاربة ومتشابهة من حيث تصميمها المعماري وزخارفها النحتية. كما تتميز بالضخامة بحيث يبلغ طول بعضها حوالي 40/ مترا، وعلى الجدران ما يقرب من 900/ تمثال لرجل وامرأة، في تكوينات من نحت بارز ومستدير، في صفوف عرضية يعلو بعضها البعض تلف المعبد، وهذه المعابد مقامة فوق قاعدة تعلو عن سطح الأرض، ويتقدم الحجرة المقدسة في كل منها اثنتان وأحيانا ثلاث صالات، تعلوها أسطح هرمية بصورة متراسة تظهر تقدما معماريا ملحوظا في تلك الفترة، ويقوي هذه الأسطح ويزيدها جمالا أشكال أخرى هرمية أصغر حجما وأقل ارتفاعا ملتصقة بالشكل الهرمي الرئيسي، صانعة تكوينا يعتمد على الإيقاع والتتابع في ميل منحدر نحو الخارج إلى أن تتصل بالأفاريز الخارجية المحيطة بأسفل السقف كله.

يزخر الجزء السفلي منها بأعمال نحت تصور مختلف الآلهة والأساطير الهندوسية، وهذه المنحوتات ذات تكوينات قوية وحركات عنيفة وأجسام آدمية متشابكة، تتفق مع معنى المتعة المادية والجنسية التي تتضمنها هذه الأعمال تقديسا للحياة الإنسانية.

ومن المعابد النادرة والطريفة التي شيّدت في الجنوب معبد كونارك، الذي شيّد على شكل عربة يستقلها الإله شوريا، الذي يرمز للشمس، في رحلاته إلى مختلف أنحاء العالم، وعند عودته منها إلى مقره في السموات.

للمعبد اثنا عشر زوجا من العجلات، يرمز كل زوج منها لشهر من شهور السنة، ويشير نصف هذه العجلات إلى الفترة المظلمة من كل شهر أو إلى الليل، كما يشير النصف الآخر إلى الفترة المضيئة عندما يكتمل القمر أو إلى النهار نفسه. وترتبط هذه العجلات بسبعة من الخيول تدل هي الأخرى على أشعة الشمس السباعية، وتبدو الخيل جميعها وكأنها طائرة في الفضاء، كما يدل شكل المعبد المعماري على جوهر الحياة، وعلى السبيل الذي يسلكه الإنسان إليها.

كما يعتبر معبد الكيلاسا قرب مدينة أيلورا، هيكلا معماريا عجيبا منحوتا في الصخر، تم نحته في عهد الملك كرشنا الأول /760/ ميلادي، وذلك شكرا للإله الذي أنعم عليه بالنصر، وكانت طريقة نحته بحفر خندق مستطيل الشكل يبتدئ من قمة أحد الأجراف الجبلية ويتجه إلى الأسفل، ثم نحتت بعدئذ الكتلة الحجرية الوسطى التي أصبحت هي هيكل "سيفا" كاملا من جميع تفاصيله. وهو مسطح الشكل ما عدا "الفيمانا" الهرمية التي ترمز إلى القمة المتوجه بالثلوج، والتي يعلوها البرج نصف الدائري شعار سيفا.

العمارة البوذية

إن البوذية كعقيدة دينية لا تتعارض مع الهندوسية، من حيث الفكرة الأساسية التي يقوم عليها كل منهما، إلا أن البوذية قد ارتبطت عند تطبيق الفكرة الروحية المثالية، بواقع حياة الفرد المادي أكثر ما ارتبطت به الهندوسية، كما أنها تتضمن بعض معاني الديمقراطية التي لا نراها في كثير من العقائد القديمة الأخرى.

والميزة الرئيسية للبوذية أنها لا تنحاز إلى النظام الطبقي، وهذه الميزة أدت إلى انتشارها بسرعة في بلدان الشرق الأقصى القديم، لذلك نرى أن المباني والفن المعماري البوذي قد تطور بشكل مشابه في الهند والصين.

الفنون المعمارية:

لقد شيد البوذيون العديد من المباني المدنية والدينية، فبنوا القصور التي تشبه القصور الفارسية والرافدية. ولكن أشهر الأعمال المعمارية البوذية، هي الأعمدة التذكارية التي تحمل معاني التقديس، وهي عبارة عن عمود مكون من تاج على شكل زهرة اللوتس، وعلى التاج قرص في وضع أفقي، لحافته الرأسية إفريز عليه أربعة حيوانات، يوجد بين كل اثنين منها عجلة، وجميعها منحوتة نحتا بارزا، ويجلس على هذا القرص أربعة أسود، ويرتفع فوقها قرص آخر ضخم يمثل عجلة هائلة، ولهذه العناصر جميعا معان رمزية.

وقد شهد عصر "موريا"، الذي أتى بعد عصر الامبراطور "أشوكا"، بظهور نموذج فريد من العمارة الدينية. وهذا النموذج لا يعتمد على البناء، بل على الحفر في داخل الجبال الصخرية، فقد بدأ ظهور معابد ومحاريب من كهوف صناعية تتفاوت في السعة والحجم لها واجهات وكأنها من الخشب.

وبعد سقوط حكم أسرة "موريا" في أوائل القرن الثاني الميلادي، ضعفت الصلة بين الهند والعالم الخارجي، وظهر في هذه الفترة نوع من البناء يسمى ستوبا: وهي من أجل الاحتفاظ بذكريات جنائزية خاصة بالإله بوذا نفسه، وتعتبر الستوبا الموجودة حاليا في سانشي، والتي تعود لعام /150/ قبل الميلاد، ذروة هذا النوع من المباني، وقد شيدت فوق تل مرتفع يطل على سهل متسع، وهي تقوم على أساس يرتفع فوق سطح الأرض لعدة أمتار على شكل رقبة، يؤدي إليها سلم مزدوج يقع في جنوبها، ويسمح بالدخول إلى ممر ضيق يحيط به سياج ملتف حول هذه القبة الهائلة التي ترتفع حوالي /15/ متر تقريبا فوق سطح الأرض، كما يبلغ قطرها حوالي /35/ متر، ويتوج الستوبا ما يسمى بالهارميكا: وهي مساحة مربعة تعلو القبة عند منتصفها، يحيط بها أربعة أضلاع ويتوسطها عمود اسمه ياستي تعلوه ثلاث مظلات، ويقل حجم كل مظلة عن الأخرى كلما ارتفعت، مما يكسب التصميم المعماري كله نهاية جميلة. كما يحيط بالبناء سياج حجري يتخلله أربعة مداخل، يتجه كل منها نحو واحدة من الجهات الأربعة الأصلية.

لا تعني الستوبا مفهوما واحدا عند البوذيين، فهي بجانب وظيفتها كمقبرة لآثار بوذا المقدس، تعتبر رمزا للبوذية بشكل عام ومكانا للعبادة، كما أنها تشير إلى قبة الكون باتجاهاته الأربعة، ويمثل الجزء المربع العلوي السموات، ويدل العمود المثبت في قمتها على محور الحياة الذي يربط هذا العالم بالسموات العليا.

العمارة المدنية الهندية:

وتشمل البيوت والقصور، تشبه البيوت في العمارة الهندية إلى حد كبير البيت الراجدي، فهي تخلص من النوافذ المطلة على الخارج، وتحيط الغرف بفسحة سماوية، ويتقدم البيت واجهة محمولة على أعمدة.

أما القصور فهي مشيدة بوجه عام على ضفة بحيرة أو على طرف أحد الأنهار، بحيث تحيط بها الحدائق من كل جانب، وتضم القصور الهندية قاعات واسعة سقوفها محمولة على أعمدة مزخرفة، وتقوم هذه الأعمدة بوظيفة زخرفية إلى جانب وظيفتها الإنشائية، ويشبه مخطط القصور مخطط البيت الهندي، لكن بصورة أوسع وأكبر لأن القصر يضم العديد من الأقسام.

العناصر المعمارية الهندية:

تضم الأعمدة والدعائم، التي كان لها أهمية خاصة في العمارة الهندية، من حيث الوظيفة الإنشائية والزخرفية. كما تضم الفتحات والنوافذ ومادة البناء.

الأعمدة والدعائم:

استخدم المعمار الهندي العديد من نماذج الأعمدة والدعائم، التي يمكن حصر أهم أنواعها بما يلي:

- 1- استخدم الهنود في المباني المحفورة بالصخور، الدعائم الضخمة، وهذه الدعائم مزينة بزخارف نباتية بسيطة، ومقطع هذه الدعائم مربع أو مستطيل.
- 2- أعمدة ذات بدن مزين بزخارف نافرة.
- 3- أعمدة مضلعة تستند على قواعد مربعة، وهي مزينة بزخارف نباتية وحيوانية.
- 4- أعمدة رشيقة نسبتها 2/3 ولها قواعد على شكل كونسول لوضع التماثيل.
- 5- أعمدة اسطوانية مزينة بزخارف نباتية وحيوانية.

الفتحات والنوافذ:

استخدم الهنود في تغطية الفتحات والنوافذ القضبان الخشبية والحجرية المستقيمة، إضافة إلى العقود المتنوعة وخاصة تلك التي تشبه شكل عقد حدوة الفرس، وقد استخدمت في عصور متأخرة في العمارة الهندية.

مادة البناء:

ساعد امتداد الهند وتنوع مناطقها، على وجود كل أنواع مواد البناء المعروفة في العصور القديمة، والتي استخدمها الهنود في مبانيهم مثل الأخشاب المتوفرة في الغابات المنتشرة في وسط وجنوب الهند، والحجارة بكل أنواعها إضافة إلى التربة الجيدة التي ساعدت على صنع اللبن والقرميد، الذي استعمل في البناء بكثرة ومنذ عصور ما قبل التاريخ في الألف الثاني والثالث قبل الميلاد.

ويمكن القول بأن العمارة الهندية، التي كانت متأثرة إلى حد بعيد بالعمارة الراقية والفارسية، لم تضيف إلى العمارة العالمية الشيء الكثير. ولكن الذي يستحق التوقف عنده، هو شكل الزخارف والنقوش المستخدمة في زخرفة المباني الهندية في المجالين المدني والديني خاصة، والتي أبدع الهنود في استنباطها وتنويعها، حتى أن الكثير منها كان له التأثير المباشر على النقوش في الفن المعماري الإسلامي، في الهند والبلاد الإسلامية المجاورة لها.

د. عبير شدود